القرآن الكريم واللغة العربية

علي النجدي ناصف

المصدر: من كتاب: "مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة"
مقالات للكاتب
مقالات ذات صلة
تاريخ الإضافة: **2008/03/09** ميلادي - **1429/3/1** هجري
زيارة: **29**

القرآن الكريم واللغة العربية

كان عرب الجاهلية يُعرفون ببراعة البيان، وشدة العارضة، والتقدم في اللسن، وكان الكلام البليغ أملك لنفوسهم، وأوقَعَ في قلوبِهِم، وهُمْ إِلَيْهِ أشوق، وفيه أرغب؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل القرآن دون غيره معجزة نبيه – صلى الله عليه وسلم – إليهم، يتحدى به، ويعوّل عليْه في الدعوة والتشريع، واثقًا به، مطمئنًّا إليه، يعلم حق العلم أن الله جلت قدرته قد آتاه من فصاحة النظم، وصحة الحكم، وبراعة التقسيم، وشرف القصد مالم يؤتِ كلامًا سواه.

ولو أنصف العرب لكانوا أحق أن يقدروه، وينزلوه منزلته فوق منازل الكلام، وأن يذعنوا له، ويلبوا داعيه، خاشعين مذعنين، لكنهم انقسموا في الإيمان به كما ينقسم الناس في كل جديد يتصدى لواقع من الأمر يريد أن يبدله، ويحمل الناس على خلافه، فكيف إذا كان الجديد نقضًا صريحًا لعقيدة دينية راسخة، وإبطالاً جازمًا لتقاليد موروثة متأصلة؛ فمنهم من غلب على هواه، وتخلص من عصبيته، وربأ بنفسه عن اللجاج والإصرار على المكابرة والعناد، فآمن به، ودعا إليه، وجاهد فيه أصدق جهاد وأبلغه فداء واحتمالاً.

ومنهم من كفر به، وصد عنه، وراح يؤلِّبُ عليه، ويبطش بأصحابه تعاليًا واستكبارًا، حتى كان منهم من سمع آيات منه فأحمده،، وخشع له، ولم يسعه حين وصفه إلا أن يقر بامتيازه وتفرده في الكلام، فما هو برجز ولا شعر ولا بضرب آخر من جنس ما يتعاطون من فنون القول، ومع ذلك أبتْ عليه العصبية في شدتها، والحمية في ضراوَتِها أن يؤمن به، أو يعدل في أمره عن سنن معارضيه من مقاومته والافتراء عليه.
وحار كُفَّار العَرِبِ في القرآن، لا يدرون ما هم قائلون فيه، ولا ما هم صانعون به؛ لانتقاصه والنَّيْلِ مِنْهُ ومِنْ صاحِبِه؟ إنَّه كلامٌ عَرَبِيٌّ، ما في ذلك ريب ولا عليه خلاف، لكنَّه كلامٌ لا يُدَانِيهِ كلام سواه، في براعة نَظْمِه، وحلاوة منطقه، واتْتِلافِ فواصله، وإحكام تقاسيمه، ومتانة نسجه، لا ترى فيه كلمة ينبو بِها مكانها، أو تضيق بها جيرتها، ولا تجد من حروفها حرفًا نافرًا، يلوي اللسان بها، أو يخل بخفة أدائها وعذوبة جرسها.

وما كان الله – تعالت حكمته – ليدع هؤلاء المعاندين وشأنهم، يزين لهم الهوى أن يتمادوا في التقول على القرآن والخوض فيه، فأخذ بتلابيبهم إلى التي لا قِبَل لهم بها، ليكشف عوارهم، ويطامن من كبريائهم، فتحدَّاهم جهرة، وفي غير مواربة، أن يأتوا إن استطاعوا بقرآن مثله، ولما أن عجزوا وطال عجزهم، حط عنهم وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، لا يحدها بقدر، ولا يعينها بوصف، ولما أن عجزوا وطال عجزهم أيضًا، حطَّ عنهم وتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مطلقة أيضًا من المقدار والوصف، ولما أن عجزوا وطال عجزهم تحداهم آخر الأمر أن يأتوا بشيء من مثله: آية أو آيَتَيْنِ مثلاً، ولما أن عجزوا وطال عجزهم، قالها عالية مدوية يتردد صداها في سمع الزمان: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: **88**].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولقد أقاموا مع ذلك على صمتهم، فما يُبدِئون ولا يعيدون، كأن التحدي لم يكن لهم، وكأنهم ليسوا أمراء البيان، وأصحاب الحمية الجاهلية فيما يعلم الناس، فحق عليهم بذلك خزي الكذب الصراح، والادعاء الباطل؛ إذ كانوا – كما يحكي القرآن عنهم – يقولون حين تتلى عليهم آياته: {قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: 31]، ولو قد تكلف منهم متكلِّف، فعارض القرآن أو شيئًا منه لظهر أمره، ولوجد كما يقول الجاحظ: "من يستجيده، ويحامي عنه، ويكابر فيه".

وهذا أبو العلاء المعري مثلاً، لقد حاجَّ في القرآن، ونفى أن يكون من كلام البشر، فيقول: "هذا الكتاب الذي جاء به محمد – صلَّى الله عليه وسلم – كتاب بَهَرَ بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، ما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا في الرجز من سهل ولا حزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب"، ومع ذلك لقد اتُّهم المعري بأنه ألف كتابًا عارض فيه القرآن، سماه: "الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات".

وما أحسب مسيلمة ومن عمل مثله كانوا يريدون أن يعارضوا القرآن، ويبطلوا إعجازه بما كانوا يتكلَّفون لأصحابِهم من قول، لأنهم كانوا يعلمون حقًّا ما يشوبه من ضعف وقصور، وإلا فما لهم لم يستطيعوا الفكاك من الانجذاب إليه، والأخذ على سننه؟ ولكنهم أرادوا بما عملوا أن يكون لدعواهم خصائص النبوة، ومعالم الرسالة الإلهية، وأنها ليست اختلاقًا من عندهم، ولكنها وحي من عند الله يتنزل عليهم من السماء.
فليس عجيبًا إذًا أن يتَّخذه النَّاسُ مَثَلَهُم الأعلى في نصاعة البيان وبلاغة التعبير، وأن يكون لهم من منتخب كلمِه، ومُحكَمِ نَظْمِه، وشرف معانيه، مددٌ لا نفاد له ولا انقطاع، يُزَيِّنُون به كلامهم من المنظوم والمنثور، على تعاقب العصور، منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا.

ولا أريد أن أستكْثِرَ في هذا المقام من الشواهد التي تدلُّ على بعض ما أفاد الشعراء لشعرهم من مفرداتِه، وأساليب آياته، وبارعِ معانيه، وبِحَسْبِي لمحاتٌ خاطفة، أرجو أن يَكونَ في قليلِها كفايةٌ وبلاغ.
قال حسَّان بن ثابت في رثاء الرسول، صلوات الله عليه:

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أنْ يَحِيدُوا عَنِ الهَوَى　　حَرِيصٌ عَلَى أنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

أخذه من آية: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} [التوبة: 128].

وقال أبو الأسود الدؤلى، يمدح آل البيت:

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ　　وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

فقيل له: شككت يا أبا الأسود، فقال: أما سمعتم قول الله عز وجل: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبأ: 24]؟

وقال ابن قيس الرقيات:

يَأمُرُ النَّاسَ أنْ يَبَرُّوا وَيَنْسَى　　وَعَلَيْهِ مِنْ كِبْرِهِ جِلْبَابُ

أخذه من آية: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: 44].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبدالملك:

بُعِثْتَ لأَهْلِ الدِّينِ عَدْلاً وَرَحْمَةً وَبِرًّا لأَرْبَابِ الجُرُوحِ الكَوَالِمِ
كَمَا بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى فَتْرَةٍ وَالنَّاسُ مِثْلُ البَهَائِمِ

المعنى في البيتين من آية: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: **107**]، وآية: {قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ} [المائدة: **19**].

وقال مروان بن أبي حفصة يمدح المهدي، ويحتج لحق بني العباس في الخلافة:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكُفِّكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلاَلَهَا
أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبِّكُمْ جِبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
شَهِدَتْ مِنَ الأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ بِتُرَاثِهِمْ فَأَرَدْتُمُو إِبْطَالَهَا

يشير إلى قوله تعالى: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [الأنفال: **75**].

وقال أبو تمام يمدح المعتصم:

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُودًا فِي النَّدَى وَالبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

أخذه من آية: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[1] فِيهَا مِصْبَاحٌ} [النور: **35**].

وقال المتنبي يمدح المغيث العجلي بالتخلي عن صحبة المال:

تُحَايِدُهُ كَأَنَّكَ سَامِرِيٌّ تُصَافِحُهُ يَدٌ فِيهَا جُذَامُ

فيه إشارة إلى قوله تعالى: {فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ} [طه: **97**].

وقال المعري في رثاء فقيه:

طَالَمَا أَخْرَجَ الحَزِينَ جَوَى الحُزْ نِ إِلَى غَيْرِ لاَئِقٍ بِالسَّدَادِ
مِثْلَ مَا فَاتَتِ الصَّلاَةُ سُلَيْمَا نَ فَأَنْحَى عَلَى رِقَابِ الجِيَادِ

يشير البيت الثاني إلى آية: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: **32**، **33**].

ولما أن اكتسح التتار أقطار الدولة العباسية، وغلب الناس على أمرهم، ولا ناصر لهم ولا مجير – تولَّى الشعراء المسعاة لكشف الضر عنهم، لا بالجهاد والقتال، ولكن بالشعر، يمدحون به الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويبثون شكواهم إليه،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ويستشفعون به إلى ربهم، عسى أن يرحمهم، ويدفع البلاء عنهم، ومن هنا نشأت المدائح النبوية الكثيرة، وهي قصائد تقتضي بموضوعها والفنون التي تدور عليها أن يقتبس لها الكثير من ألفاظ القرآن وعباراته، وأن يشار فيها إلى ضروب شتى من معانيه.

وخلف من بعد هؤلاء الشعراء خلف راقهم هذا اللون من ألوان الشعر، فعالجوا نظمه، وعارضوا منه ما طاب لهم أن يعارضوه، فكان لهم من القرآن في الحالين مثل ما كان لسلفهم منه.

ومن الشعراء من لم يقنع في الأخذ من القرآن بالكلمة ينقلها، أو المعنى يشير إليه، فراض نفسه على اقتباس بعض أساليبه، ينقلها كما هي؛ كقول أحمد بن محمد بن يزيد:

سَلِ اللّهَ مِنْ فَضْلِهِ وَاتَّقِهْ　　　فَإِنَّ التُّقَى خَيْرُ مَا تَكْتَسِبْ
وَمَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَصْنَعْ لَهُ　　　(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ)

وقول عبدالقاهر بن طاهر التميمي البغدادي:

يَا مَنْ عَدَا ثُمَّ اعْتَدَى ثُمَّ اقْتَرَفْ　　　ثُمَّ انْتَهَى ثُمَّ ارْعَوَى ثُمَّ اعْتَرَفْ
أَبْشِرْ بِقَوْلِ اللّهِ فِي آيَاتِهِ:　　　(إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفْ)

وأما آثار القرآن في النثر فأكثر من أن يحيط بها حصر، إذ كان اقتباس بعض آياته في الخطب سمة ملازمة، وعرفًا متبعًا، لا يحيد الخطيب عنه، ولا يفرط فيه، حتى كانوا يسمون الخطبة التي تخلو من القرآن الكريم والحديث الشريف – بالشوهاء.

وهذا عمران بن حطان يقول: "خطبتُ عند زياد خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس، فسمعت شيخًا يقول: "هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن".

بل هذا مصعب بن الزبير، يقدم على البصرة واليًا من قبل أخيه، فيصعد المنبر ليخطب في الناس، فلا يزيد على أن يتلو آيات من أول سورة القصص، يقرن إلى بعضها إشارات بيده، فلما أن وصل في التلاوة إلى: {إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 4] أشار نحو الشام، ولما أن وصل إلى: {وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص: 5] أشار نحو الحجاز، ولما أن وصل إلى: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص: 6] أشار إلى العراق، ثم نزل راضيًا، لا يحس أنه قصر في الإفصاح عن مراده، ولا أن القوم لم يفهموا عنه أنه قد نال من خصمه في الشام حين عناه مشيرًا إليه بقول الله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}، وأنه قد وعد شيعة أخيه في الحجاز وعدًا حسنًا، ومناهم أن العاقبة لهم، والدائرة على عدوهم حين عناهم مشيرًا إليهم بقول الله تعالى: {وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}، وأنه قد توعد من بالعراق من عدوه أن سيحل بهم العقاب الذي يحذرون، لا ينفعهم حذر، ولا يغني عنهم جند، حين عناهم مشيرًا إليهم بقول الله تعالى: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}.

وتعد الخطب الدينية ومواعظ الوعاظ أكثر أنواع الكلام أخذًا من القرآن، وأشده تأثرًا به، وتعويلاً عليه في التمكين للقضية، وإقامة الحجة لها، والحمل على الاقتناع بها، ثم في الترغيب والترهيب، وفي التذكير والإرشاد، ففي القرآن من ذلك فيض غزير، ومدد كبير.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولم تحرم الكتابة الأدبية نصيبًا منه، وخاصة كتابة أصحاب البديع، الذين كانوا يستكثرون منه، ويفتنون فيه، فقد كانوا يرفدون ما يصطنعون منه بآيات من الكتاب العزيز، اقتباسًا لها، أو إيماء إليها، أو تمهيدًا لتمثلها في الأذهان.

وأمدَّ القرآنُ العربيةَ بألفاظ نقلها إلى معانٍ لم تكن لها من قبله، لمناسبة تجمع بين المعنى الذي نقلت منه، والمعنى الذي نقلت إليه؛ مثل: الصيام، والزكاة، والحج، والعمرة، والإيلاء، والظهار، والربا، وغيرها.
واستحدث فيها علومًا اشتقت منه، وأخرى ألفت له، أو ألفت فيه؛ اشتق علم الفقه من آيات الأحكام في العبادات، والمعاملات، والحدود، والميراث، والوصية وغيرها، واشتق علم أصول الفقه من مطلقه ومقيده، وعامه وخاصه، وناسخه ومنسوخه، واشتق علم الكلام من متشابه آياته، كتلك التي تجعل لله يدًا، والتي تسند إليه الاستواء على العرش، فقد أثارت هذه الشبه تساؤل الناس عن معناها، وكيف هي في جانب الله تعالى؟ فأما السابقون الأولون فقد أمسكوا عن تأويلها، والخوض في المراد بِها، وردوا الأمر في علمها إلى الله تعالى، ثم لم يلبث الناس مع تقدم الزمن، وتحول الحال أن تناولوا أمور العقيدة كلها بالبحث والدراسة، حتى كانت مذاهب المتكلمين.

ووضع النحو صيانة للقرآن من اللحن أن يتطرق إليه، بعدما استفحل أمره في اللغة، وعاث فيها فسادًا.
وألفت كتب في إعجازه، وكتب في قراءاته، وكتب في غريبه، وكتب في مجازه، وكتب في تأويله، وكتب في ناسخه ومنسوخه، وكتب في معانيه، وكتب في الوقف والابتداء في تلاوته، إلى كتب أخرى تقول في كل ما يخطر بالبال وما لا يخطر به من وجوه الدراسة له والتأليف فيه، حتى عدد الآيات والحروف.

وألفت كتب في إعرابه، وكتب في الاحتجاج لقراءاته ما شذ منها وما لم يشذ، فكان منها بحوث بارعة في اللغة، والنحو، والصرف، والأصوات، وألفت كتب مختلفة في تفسيره، منها ما يقوم على الأثر، ومنها ما يجمع بينه وبين الرأي، ومنها ما يُعنى بأحكام الفقه، أو مسائل النحو والصرف، أو وجوه البلاغة، أو غيرها من أنواع التفسير.
وإنه ليثير الآن، وسيظل يثير إلى يوم الدين بحوثًا، ويوحي بمقالات لا عد لها، كشفًا عن أسراره، أو إثباتًا لإعجازه، أو تأويلاً لبعض آياته، أو استنباطًا منه لحقائق مختلفات، ولقد أفادت اللغة من ذلك كله ذخرًا مهولاً من المصطلحات الفنية، والنظريات الفلسفية، وقضايا السلوك، وشؤون الحياة والاجتماع.

ومن الباحثين فيه من أرهق نفسه عسرًا، وحملها في صبر عجيب على تتبع آياته، والارتياض لإيقاع الأصوات فيها؛ لعله يجد من بينها آيات توازن بحور الشعر، على تعددها، واختلاف موسيقاها، فكان له منها ما يريد، فأقبل ينظم لكل بحر بيتين، يضمن أولهما اسم البحر، وأما ثانيهما فشطره الأول لنصف تفاعيل البحر، وشطره الثاني للآية التي جاءت على وفاق وزنه؛ كقوله في البحر المديد:

يَا مَدِيدَ الهَجْرِ هَلْ مِنْ كِتَابٍ فِيهِ آيَاتُ الشِّفَا لِلسَّقِيمِ؟
فَاعِلاَتُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلاَتُنْ (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

فكأنَّما أراد صاحب هذه المحاولة المضنية، بِما تكلَّف من جهد ووقت أن يدل على أن القرآن لم يندَّ عنه من علوم العربيَّة شيء، كما لم ينِدَّ عنه من علوم الشريعة شيء، فها هو ذا يجعل للعروض عنده نصيبًا، وإن لم يكنِ العروض بسبب منه، فالقرآن ليس من الشعر ولا من الرجز، نزهه الله أن يكونهما، أو يكون بسبب منهما، لكن الشعر شيء، والوزن في الكلام المنثور شيء آخر، وكثير جدًّا أن يلقى المَرْء ضروبًا من العبارات الموزونة، تقع لصاحبها عفوًا، دون تكلف لها أو قصد إليها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والأثر الذي لا يعدله أثر آخر من آثار القرآن في العربيَّة أنَّه أمسك عليها خصائص سَمْتِها الأصيل، وكَفَلَ لها الخلود على الأيام صالحة نقيَّة، لم يُصِبْها مسخ، ولا شابَها انحراف؛ فهذه مفرداتُها لم تزل بفضله على عهد الأولين بها، مجوَّدة الأداء، مضبوطة المخارج والأصوات، وهذه مناهجها في الصياغة، وطرائقها في التعبير، ألست تراها على ما نزل به القرآن من التنوع والافتنان؛ فحقيقة ومجاز، وكناية وتصريح، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وقصر وإطلاق.

لهذا لا يشُقُّ علَيْنَا أن نفْهَمَ عن أسلافنا، ونتذوَّق جَمال الفنّ فيما خلفوا لنا من المنظوم والمنثور على مر العصور، وتلك مزيَّة نادرة، ونعمة سالفة أن يستقيم لأُمَّة أن يتَّصل آخرُها بأوَّلِها، ويقوم حاضِرُها على أساسٍ من ماضيها، فتظل أبدَ الدهر أمة عريقة، وبنية متماسكة غير ذات تفكك ولا انفصام.

وعلى قدر صلة المَرْءِ بالقرآن، ومدى مصاحبته له يكون – فيما يرى الناس – حظ لغته من أصالة العرق، ونقاء المعدن، وسلامة البنية من الآفات، مشافهًا بها، ومنشئًا لها، يتبيَّن ذلك جليًّا لمن يعنى به، ويلقي باله إليه.

إنَّ القرآن لم يُمْسِكِ العربية لتجمد، ولا حال بينها وبين التَّطوُّر، ولا صدَّها عن الاستجابة لمطالب العلوم ومحدثات الحضارة، بفضل ما أُوتِيَتْ من وسائل النُّمُوِّ الذَّاتي، والثراء غير المجلوب، لكنها تدور أبدًا في فلكه، وتنجذب أبدًا إليه، حماية لها من عوادي الأحداث أن تنال منها، فتغير من أصولِها، وتبدلها حالاً بحال، فإذا هي مسخ شائه، لا هو بالعربي ولا بالأعجمي، أو تنحدر بِها الأحداث على الأيام إلى الاضمحلال والاندثار، لتخلفها عامية عاجزة، كأنها الخلق المرقع بما تجمع من عربية محرفة، وأخلاط من لغات أجنبية وافدة، وهيهات لمثلها أن يطيق التعبير إلا عن المطالب اليسيرة، والخواطر الهينة، أما الأدب في تساميه، والعلم في تعمقه، فليس منها، ولا هي منهما في شيء.

وهي بعدُ لغةُ أهلها خاصة، هم الذين يصطنعونها، ويفهمون معانيها، ويدركون ما عسى أن يكون فيها من إشارات، إنها عامل عزلة، وداعية حرب على الفصحى، تبدد آثارها الحسان في رأب الصدع، ولَمّ الشعث، وبث روح الإخاء والتعاون بين العرب على ما فيه الخير وصلاح الأمر.

ويمكن أن نقول في ثقة واطمئنان: إنَّه ما من كتاب من وحي السماء، أو من صنع البشر استطاع أن يصنع للغته ولأهله مثل ما صنع القرآن للعربية والمتكلمين بها؛ بل للبشرية كافة، وللحضارة الإنسانية كلها، بما رفع لها من قواعد، وأصل من أصول، ولقد لقي من حفاوة الدنيا به، وإقبال العلماء عليه دراسة وترجمة ما لم يلقه إلا صاحب رسالته صلوات الله وسلامه عليه.

ومن عجيب أن تنشأ أواخر القرن الماضي، وأوائل القرن الحاضر ناشئة من رأي، تتوقع أن العربية لا بد يومًا لاحقة باللاتينية، وصائرة إلى ما صارت إليه من الفناء، رأي كان يراه بعض الأجانب، ويتبعهم فيه بعض المصريين ممن لم يتح له – على ما يبدو – أن يعلموا مكانها من القرآن، وحياطته لها إلى آخر الدهر، فهي اللغة التي اصطفاها الله له، وقد وعد سبحانه أن يكفل له الخلود، ووعده جل ذكره لا يتخلف، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

وكنَّا نودُّ لو نَسَأَ اللَّهُ في عمر أصحاب هذا الرأي إلى اليوم، ليتبيَّنُوا عن يقين أنَّهم لم يكونوا في رأيِهم ذاك على صواب، ولا كانوا يدركون مبلغ الصلة التي تشد العربية إلى القرآن، وتقرن خلودها إلى خلوده، ولا كانوا يُدركون أيضًا مبلغ صلة العربية بالقرآن من جانب، والتعبد في الإسلام من جانب آخر، ولا يدركون كذلك مبلغ حب الناس للقرآن، وحرصهم على تلاوته والاستماع له من حاكمين ومحكومين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وها نحن أولاء نرى العرب في أقطارها المتعدِّدة، قد جعلت له نصيبًا مفروضًا، ومواعيد معلومة بين برامج الإذاعة المسموعة والمرئية على سواء، نزولاً على إرادة شعوبها، ومشاركة لها في الاستمتاع به، والإفادة منه، يرتله صفوة منتخبة من أجود القراء ترتيلاً، وأعذبهم أصواتًا، إلى ما جرت به عادة الناس قبلاً، ولا تزال جارية به إلى اليوم من دعوة القراء إلى تلاوته في المحافل الجامعة والمناسبات المتنوعة، واحتشاد الجموع للاستماع له، ومشاركة أصحاب الدعوة فيما يكونون فيه من شأن.

ولم يقتصر الأمر في تربية الناشئين على سور وآيات منه، يحملون على حفظها وفهم معانيها فيما يحفظون ويفهمون من النصوص الأدبية المختارة، ولكن رئي أن يعزز هذا الجهد بجهد شعبي أوسع نطاقًا، وأكبر نفعًا.
فأنشئت مدارس لحفظه وتجويده، وتقام المسابقات العامة لحفظته، فيشترك فيها جموع من الشبان والشابات إلى جانب المنقطعين للحِفْظِ والتجويد من الصبيان، ويمنح الفائزون من هؤلاء وأولئك جوائز تشجيع، وشهادات تقدير.

ثم لا بد في أداء الصلاة من أن يقرأ المصلي ما تيسر من القرآن، وهو لذلك حاضر في أذهان أهله أبدًا، حتى ما يكاد يفارقهم قراءة له أو استماعًا لقارئيه، فإذا لهم منه غذاء روحي كريم، ومدد ثقافي لغوي متجدد، والعربية إذًا ليست لغة الدنيا وحسب، ولكنها لغة الدين أيضًا، بها يكون التفاهم والتعبد جميعًا.

هذا هو سلطان القرآن على النفوس وعمله لها في زمان يشتد فيه الصراع بين الاستقامة والزيغ، وتتعدد المذاهب المتنافرة، والدعوات الشاردة، يحاول كل أن تكون له الكلمة العليا، والإرادة الماضية، في تغيير أساليب الحياة، وقيم المجتمع، وآداب السلوك، في غير وعي ولا تمييز، وتلك هي صلة العربية به، وأسباب انتمائها إليه، واستظلالها بظله، فهل يصح في فهم بعد هذا وذاك أن تقرن إلى اللاتينية، وأن يتوقَّع متوقّع أنَّها صائرة إلى المصير الذي صارت اللاتينية إليه؟!

---

[1] المشكاة: فتحة غير نافذة يوضع فيها المصباح.

This file was downloaded from QuranicThought.com